لحظة قُبيل الوداع

بعضي يودّع بعضي ..... أحب أن أموت في بيتي بين أهلي ... لا أريد أن أموت غريباً في مشفى أو بين الناس..... لقد أنشب الداء العضال أنيابه في كل جسدي و أُحسُّ بيديه الباردتين تغوصان داخلي تريدان اقتلاعي من هذه الحياة كما كنت أقتلع الزهر من أصيصه وأنا طفل صغير ....

لماذا أشعر الآن بالذات أن الدنيا ، بكل ما فيها من متناقضات ، جميلة من حولي وأنا الذي كنت أتبرّم منها ومن أهلها ولا يتوقف لساني عن نقد منغّصاتها اليومية !!

هذا الرصيف الذي اعتدت المشي فوقه كل صباح يبدو لي اليوم أجمل ، وتبدو زقزقة العصافير فيه أجمل من كل مرة !!

هذا باب بيتي .... لماذا أحسست بالسعادة لرؤيته وهو مجرد باب خشبي كنت لا ألقِ له بالاً .... ما الذي جعله مختلفا .... لقد كان مجرد باب !!

هاهي زوجتي وأولادي .... إن بي شوقاً عارماً وقلباً ينبض بحب غامر يدفعني لضمّهم إلى صدري وتقبيل رؤوسهم ووجناتهم أكثر مما كنت أفعل من قبل !! ما أجمل ابتسامة زوجتي ... وما أحلى ثيابها .... ما أجمل رسومات أطفالي وما أحلى صراخهم وشجارهم الذي كنت أتأفف منه ...

كم هي جميلة تلك الأشياء التي كانت تحيط بي وكنت أتجاهلها ..... ما أجمل سريري وما أجمل مقعدي الذي أجلس عليه كل مساء لأتناول الشاي و أشاهد التلفاز .... ما أجمل مصحفي وما أجمل سجادة الصلاة التي أصلّي عليها كل يوم .....

لماذا أرى هذه الأشياء الآن ؟ ولماذا أحس بحلاوتها ؟ وما الذي يجعلني أتمسك بها رغم أنني سأفارق الحياة قريبا !! أهي صحوة الموت التي يتحدثون عنها !! أهو حب الحياة الذي بدأ يتفلّت مني بعد أن كان حبيساً و لم أشعر به .... يبدو أن سعادتي كانت داخلي لكنني افقدها الآن برحيلي عنها ورحيلها عني ....

محمد جمال الدين السباعي

حلب

2009/10/21